الفصل الخامس

أولاً: منهج تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم

يجب على كل المهتمين بتفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم اتباع هـذا المنـهج وتطبيقه كما يلى:

١ – تجميع الآيات القرآنية التى تعالج قضية واحدة.

٢ – مراعاة تعدد معانى اللفظ الواحد لغويا.

٣ – مراعاة احتمال تعدد المعانى العلمية للآية الواحدة.

٤ – مراعاة خضوع التفسير لدلالات اللغة العربية وقواعدها اللغوية والبلاغية.

٥ – مراعاة عدم العدول عن الحقيقة إلى المجاز فى فهم الألفاظ.

٦ – التثبت من حقائق العلم وعدم إقحامها فى غير موضعها.

٧ – عدم تعارض التفسير المقترح مع نص قرآنى آخر.

٨ – مراعاة عظمة القرآن الكريم معجزا ومحفوظا ومهيمنا على الكتب السابقة.

٩ – استخدام الآيات الكونية القرآنية للحكم على صحة أو بطلان نظرية.

١٠ – الاستعانة بتفسير القرآن للقرآن لتوضيح الآيات الكونية كلما تيسر ذلك.

١١ – التعارض والتناقض مستحيل بين القرآن فى آياته وبين الفطرة فى حقائقها.

أمثلة تطبيقية لهذا المنهج:

ولتوضيح تطبيق دعائم هذا المنهج أقدم أمثلة للتفسير العلمى للآيات الكونية والذى قدمته فى كتبى ومقالاتى متبعًا أسس المنهج المذكور فى التفسير العلمى. من واقع خبرتى فى هذا المجال:

١ – تجميع الآيات القرآنية التى تعالج قضية واحدة

وهذا أسـلوب علمـى لأن آيـات الموضـوع الواحـد فـى تفرقـها بـين السـور تشـبه الجزئيـات والحقائق التى يقررها البحث العلمى مفردة أولا، ثم يكون منها بعد الجمع والترتيب والاستنباط الأصول والقواعد العامة والقضايا اليقينية والظنية والمحتملة.

ولتوضيح ذلك نجد على سبيل المثال أن النجوم وردت فى القرآن فى ثلاث عشرة آية وهذه الآيات تفيد خصائص علمية هامة ومتعددة للنجوم مثل الضياء والحركة الظاهرية والحقيقية، والسكون الظاهرى ومواقعها المتغيرة، وبعدها الشاسع عنا ووفاتها فى المستقبل، وغير ذلك من قضايا يقينية ومحتملة.

يقول تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الأنعام: ٩٧)

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (النحل)

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾ (الطارق)

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الواقعة)

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ (طه)

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ (النجم)

ويرى الخبير بفيزياء النجوم فى حدود معانى هذه الآيات مثلا بعد جمعها وبحثها معانى دقيقة عن صفات النجوم ومصيرها من صريح النص تارة وبالإشارة القوية الواضحة تارة أخرى، وأن هذه الصفات تتفق فعلا مع ما وصل إليه العلم الحديث.

فقوله تعالى فى الآية الأولى ﴿ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا ﴾ وفى الثانية ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ يشير إلى أن ضوء النجوم ذاتى وليس منعكسا كما فى الكواكب والأقمار، لهذا فإن الاهتداء حاصل من ذات النجوم لأنها الأفران النووية التى تولد الضوء فى هذا الكون، كما أن حركة الأرض بدورانها حول نفسها وحول الشمس جعلتنا ندرك الحركة الظاهرية للنجوم وموقع النجم القطبى الشمالى فى اتجاه محور دوران الأرض حول نفسها لتحديد الجهات الأصلية فى ظلمات البر والبحر، وكذلك رصد البروج (تجمعات النجوم) خلال الحركة الظاهرية السنوية لهذه البروج نتيجة دوران الأرض حول الشمس. أما فى ظلمات الفضاء الكونى فإن النجوم ليس لها حركة ظاهرية بل تبدو لرائد الفضاء كمصابيح ثابتة ظاهريا فى السماء حالكة السواد، ولا معنى للجهات الأصلية فى الفضاء؛ ولهذا يحدد الله سبحانه وتعالى الهداية

فى ظلمات البر والبحر عندما نكون على سطح الكرة الأرضية التى تدور حول محورها مرة كل يوم وحول الشمس مرة كل عام.

ويرى المتخصصون فى وصف النجوم بلفظ (الثاقب) معنى المضىء ذاتيا وهذا اللفظ استعمله العرب فى وصف النار ولهب المصباح، واستعمله الله تعالى فى وصف الشهاب المحترق بقوله سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الصافات)

والشهب معروفة الآن بأنها أجسام نارية مضيئة وضوءها ذاتى نتيجة ارتفاع حرارتها بالاحتكاك عند سقوطها ونفاذها خلال الطبقات الكثيفة للغلاف الجوى فيمكن بذلك استنتاج أن النجم الثاقب معناه النجم المتقد المضيء بذاته كالنار والمصباح والشهاب، كما أن وصفه تعالى للنجم فى نفس الآية بأنه الطارق أى المتحرك هو وصف علمى دقيق، وحيث إن نعت النجوم بالحركة فى السماء يتعارض مع ثباتها الظاهرى بدليل أننا نهتدى بمواقعها ليلا أثناء سفرنا فى البر والبحر كما فى الآيتين الأولى والثانية فإن هذا التعارض يزول عند قراءة الآيتين الرابعة والخامسة فى وصف مواقع النجوم وبعدها الشاسع عنا فيدل ذلك على أن ثبوتها ظاهرى، وأنها تبدو لنا ساكنة نظرا لبعدها السحيق عنا تماما كما فى المشاهدة العادية على سطح الأرض حين ترى العين الأجسام المتحركة بسرعة والبعيدة جدا منها كأنها ساكنة غير متحركة، وبالمثل فإن النجوم فعلا متحركة وليست ساكنة بل إنها تجرى بسرعات جبارة لا يمكن قياسها إلا بوسائل طبيعية متقدمة، كما أن مواقع النجوم نسبية وليست مطلقة لأن كلا من الراصد (الإنسان) والمصدر (النجم) فى حركة مستمرة؛ ولهذا أتى التعبير بحرف الامتناع فى قوله تعالى (لو تعلمون) أى إنكم لن تستطيعوا قياس البعد المطلق للنجوم فالمواقع متغيرة مع الزمن ومع تغير مكان مرجع القياس (الأرض) وموقعه فى الفضاء الكونى ومع اعتبار أن الضوء الذى يصل إلينا من النجوم لا يعبر عن موقعه وقت الرصد، ولكنه يعبر عن الموقع منذ خرج الضوء من هذا النجم البعيد منذ سنين قد تصل إلى البلايين! فأين النجم الآن؟! لا أحد يعرف بالتحديد وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول سبحانه:

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

(الواقعة)

وهذه المواقع النسبية للنجوم بعيدة جدا، فأقرب نجم للشمس هو نجم ألفا قنطوروس ويبعد عنا بالسنين الضوئية ٤,٤ (السنة الضوئية ٦ ملايين ميل) ونجم الشعرى يبعد عنا ٩ سنوات ضوئية، والنجم القطبى ٤٠٠ سنة ضوئية ومنكب الجوزاء ١٦٠٠ سنة ضوئية ونجوم سديم المرأة المسلسلة مليونى سنة ضوئية وهناك نجوم (يرصدها التليسكوب الفلكى فى ماونت بالومار بأمريكا) تبعد عنا ١,٢ بليون سنة ضوئية، وتم اكتشاف أشباه نجوم تبعد عنا أكثر من

١٠ بلايين سنة ضوئية وصدق الحق تبارك وتعالى حين وصف السموات المحتوية للنجوم «بالسموات العلى؟ فى الآية الخامسة.

فهل تصورت معنى «مواقع النجوم» وهل أدركت عظمة القسم بها؟ وهل يمكن أن يتصور عاقل ورود مثل هذا القسم جزافا أو على سبيل البلاغة فى الكلام أو من باب سحر البيان؟ كلا ما هذا القرآن بتأليف بشر، وسبحان الله! إن هو إلا وحى يوحى.

ولقد أثبت العلم أن النجوم كلها تجرى وتدور فى أفلاكها تماما مثل نجم الشمس الذى يدور بسرعة قدرها ١٥٠ ميل/ ثانية فى مداره حول مركز مجرة سكة التبانة وكذلك تجرى الشمس بسرعة ١٢ ميل/ ثانية بالنسبة لما حولها من نجوم المجرة التى تجرى هى الأخرى فى الفضاء الكونى فى إطار التوسع الحالى للكون، وبهذا فإن وصف النجم بالطارق وصف علمى ينطبق على جميع النجوم بما فيها الشمس كما فى قوله تعالى:

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يس)

إن من ينظر إلى الشمس بعينه المجردة يراها ثابتة فى مكانها ولا يشعر بحركة لها تماما كما لا نشعر بحركة الأرض ودورانها مع الفارق، وبعد فترة يرى الشمس وقد انتقلت ظاهريا من المشرق إلى المغرب على مدار النهار انتقالا بطيئا وليس جريا، ولو حاول أديب فى عصر نزول القرآن وصف هذه الحركة لجاز له أن يقول تحركت الشمس أو انتقلت أو أن الشمس تمشى أو تتحرك ببطء، وهكذا، أما أن يقول تجرى فهذا مستحيل وغير معقول كما هو واضح لنا بالمشاهدة وبإمكانيات عصر الوحى بالعين المجردة إذ من أين له ذلك وهو لا يراها تجرى والجرى معلوم صفته لدينا كبشر.. وفى القرآن كلمة تجرى نجدها منسوبة لأشياء تجرى واضحة للعين المجردة مثل قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ و ﴿ وَٱلْفُلْكِ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ و ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى ﴾ أما جريان الشمس جريا فلم ندركه إلا بظاهرة إزاحة الطيف لدوبلر فى القرن العشرين الأمر الذى سبق به القرآن العلم البشرى بأربعة عشر قرنا من الزمان وياله من إعجاز فى كلمة واحدة من كلمات كتاب الله.. كلمة تجرى.. وقد عرفناها حديثا لكننا لم نعرف بعد المعنى العلمى الدقيق لعبارة ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ !! وسوف تكشف علوم المستقبل عن هذا المستقر المقدر من العزيز الحكيم.

ولا يتسع المجال لشرح تفصيلى لهذه الآيات، ولكننا نؤكد هنا أن القرآن يفسر بعضه بعضا وأن تجميع الآيات فى الموضوع الواحد يفتح آفاقا للفكر الدقيق ويكشف لنا أسرار الكائنات، وعلى سبيل المثال.

يقول الحق تبارك وتعالى مشيرا إلى نهاية الشمس بقوله سبحانه: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ وإلى نهاية النجم المحتومة بقوله: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ولفظ هوى بمعنى سقط. ويرى المختص بفيزياء النجوم أن النجوم عند وفاتها تنكمش على نفسها بالجاذبية الهائلة التى تظهر عندما ينتهى الوقود فى باطنها فتنهار على نفسها إلى الداخل وتتحول بالانكماش إلى قزم أبيض أو نجم نيوترونى أو ثقب أسود أصغر ملايين المرات من النجم الأصلى، وهذا ينطبق تماما على الوصف الإلهى بقوله سبحانه ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وينطبق على نجم الشمس عند وفاتها وانكماشها كما فى قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ وهكذا ندرك أهمية تجميع الآيات الخاصة بموضوع معين لكى نتعرف على مزيد من الأسرار.

وهناك مثال آخر فى تجميع الآيات التى تصف دوران الأرض حول نفسها من خلال وصف تولد الليل والنهار كما فى قوله سبحانه:

﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (الزمر: ٥)

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ (لقمان: ٢٩)

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ (الأعراف: ٥٤)

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ (الرعد: ٣)

وهذه الآيات كلها تشير إلى الحركة المغزلية لكوكب الأرض، أى دورانها حول محورها مرة كل يوم فيتبادل الليل والنهار بالتكوير والإيلاج والإغشاء وهى أوصاف علمية دقيقة لهذه الحركة المغزلية. فالتكوير أصل معناه لف شىء على آخر، والمفهوم الأصلى اللغوى لليل والنهار زمنى كما جرى العرف.

وحيث إنه لا معنى لتكوير زمن على زمن فإن المعنى باستخدام لوازم الليل والنهار أى بالمجاز المرسل هو لف ظلمة الليل على مكان النهار، ولف نور النهار على مكان الليل وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس ليحدث هذا التبادل.

كما أن قوله تعالى فى الآية الثانية: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ (لقمان: ٢٩) والإيلاج معناه إدخال شىء فى آخر بحيث يحيط به ولا معنى لإيلاج زمن الليل فى زمن النهار وبالعكس، وبهذا فإن المقصود هو أن الله يجعل مكان الليل يحل محل مكان النهار ويجعل مكان النهار يحل مكان الليل فى نصفى الكرة الأرضية وذلك لا يتم لا بدوران الأرض حول محورها الواقع تماما فى قطرها المنتصف لها أمام ضوء الشمس.

وهكذا فإن آيتى التكوير والإيلاج تنطقان بإشارة قرآنية بليغة على أن الأرض تدور حول نفسها وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض كما كان الاعتقاد قديما فى النظرية المركزية الخاطئة، وتدل آية الإيلاج على أن مكان الليل يساوى فى المساحة مكان النهار حتى يمكن إحلال (إيلاج) كل منهما محل الآخر، وبذلك فإن التكوير يعطى معنى اللف وكروية الأرض والإيلاج تأكيد على تساوى نصفى هذه الكرة هندسيا حول المحور كما ذكرنا، وتبادل عبارتى التكوير والإيلاج بين الليل والنهار يدل على دوران الأرض حول نفسها وليس دوران الشمس حول الأرض كما كان يعتقد الناس ظاهريا بالمشاهدة الخادعة.

كما أن التعبير بالفعل المضارع يدل على استمرارية الدوران، فتصور معى دقة التعبير والتكرار البليغ والمجاز المرسل لتقرير حقيقة علمية لم تظهر إلا فى العصر الحديث، ولو أن القرآن خاطبهم بصريح العبارة وقت نزوله بكروية الأرض وهم يرونها مسطحة وبحركات الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه وحيل بينهم وبين هدايته، فكان من الحكمة الإلهية أن تأتى الإشارة بالتكوير والإيلاج بالإشارة وليس بصريح العبارة من غير مخالفة للحقائق بحيث يفهم الناس هذه النصوص الكونية بقدر ما تيسر لهم من العلم فى كل زمان.

وننتقل الآن إلى آيات الإغشاء الثالثة والرابعة لوصف تعاقب الليل والنهار عقب خلق الأرض بأنه كان سريعا بقوله سبحانه (يطلبه حثيثا) فى الآية التالية:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأعراف)

.وعبارة «يطلبه حثيثا» تدل على أن دوران الأرض حول نفسها كان سريعا فى بداية خلق كوكب الأرض، ويؤكد العلماء أن اليوم الأرضى فى البداية كان أربع ساعات فقط. ثم حدثت فرملة تدريجية لهذا الدوران المغزلى على مدى عدة مليارات من السنين حتى أصبح اليوم الآن ٢٤ ساعة، وهذه الحقيقة العلمية تظهر لنا إذا قارنا الآية السابقة بالآية التالية:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(الرعد)

وهنا نلاحظ عدم ورود عبارة «يطلبه حثيثا» الدالة على التسارع مما يدل على أن الدوران المغزلى للأرض قد نقصت سرعته بعد تمام تجهيز الأرض بالرواسى والأنهار والثمرات. وهذه المقارنة بين الآيتين أعطت الإشارة لظاهرة علمية لم يتم التعرف عليها إلا بعد اختراع الساعات الذرية التى أكدت أن الأرض تبطئ فى دورانها بمضى السنين بمعدل ضئيل جدا يبلغ جزءا من ألف من الثانية فى اليوم الواحد كل مائة سنة ! !

وبهذه الأمثلة ندرك أهمية تجميع الآيات بالنسبة لمنهج التفسير العلمى للآيات الكونية تفسيرا موضوعيا.

٢ – مراعاة تعدد معانى اللفظ الواحد لغويا:

من أهم خصائص اللغة العربية تعدد مدلولات اللفظ وكثرة معانيه، فإذا أخذ المفسرون القدماء بمعنى معين فلا مانع من الأخذ بالمعانى الأخرى التى تعمق مفهوم اللفظ وتوضح المعنى الدقيق للآية بالإضافة إلى المعنى الظاهرى، ولبيان ذلك نقدم الأمثلة التالية.

(أ) يقول سبحانه وتعالى فى بيان تاريخ بنى إسرائيل:

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الإسراء)

ويرى بعض المفسرين كالإمام القرطبى أن الأرض هنا تعنى أرض الشام ومصر. وأما وعد الآخرة فيعنى القيامة، ولفيفا أى من قبوركم مختلطين من كل موضع.. وقال ابن عباس وقتادة فى تفسير ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى جئنا بكم جميعا من جهات شتى.. وقال الكلبى: «فإذا جاء وعد الآخرة» يعنى مجىء عيسى عليه السلام من السماء.

والحقيقة أن الآخرة هنا لا تعنى القيامة بل تعنى آخرة بنى إسرائيل فى الدنيا كما ورد فى نفس السورة فى قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الإسراء: ٧)

وبالربط بين الآيتين وبالنظر إلى الصراع الإسلامى والعربى مع إسرائيل فى عصرنا الحاضر نفهم أن الأرض وردت فى الآية الأولى على إطلاقها بغير تحديد لأن اليهود كانوا مشتتين فى الأرض قبل أن يتجمعوا فى فلسطين وأنهم قاموا بالإفساد فى الأرض على إطلاقها كما فى قوله تعالى: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ (الإسراء: ٤) فإذا جاء وعد المرة الآخرة أى عصرنا الحاضر وليس القيامة جاء الله بهم لفيفا فى فلسطين لتدور فيها إن شاء الله المعركة الأخيرة التى ستقضى عليهم وبالتالى فإن الآيات هنا دنيوية وليست أخروية علاوة على أنها إخبار عن غيب لم يقع زمن نزول القرآن ومن المعلوم تاريخيا أن الجيوش الرومانية دخلت أورشليم بعد أيام المسيح بقليل منذ عشرين قرنا وقتلت غالبية الشعب اليهودى وأخذت الأحياء الباقين سبايا عاشوا عبيدا أذلاء موزعين طوال الشتات بين مختلف شعوب العالم من يومها حتى منتصف القرن العشرين مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ (الأعراف: ١٦٨) ثم يتحقق فى عصرنا قوله تعالى: ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ تمهيدا لهلاكهم بعون الله تعالى فى المستقبل.

(ب) يقول تعالى فى وصف خلق الأرض وتسخيرها:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النازعات)

ولفظ (دحاها) له معان متعددة فى اللغة مثل مدها وبسطها أو أزاحها وقذفها من مقرها ثم أكمل خلقها أو جعلها كالدحية أى كالبيضة لأن الأدحوة معناها بيضة النعام.

ولقد اقتصر المفسرون على معنى المد والبسط فقط طبقا للمشاهدة العادية برغم أن أصل المعنى قذف الشىء من مقره ثم مده وبسطه، وكذلك فعلوا بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ علما بأن الطحو مثل الدحو معناه قذف الشىء ثم مده وبسطه وأغلب ما استعمل الطحو فيه هو القذف من المقر، وفى هذا تأكيد قرآنى على الجمع بين المعنيين أى إنه تعالى بنى السماء بنجومها وأنه دحا أو طحا جرم الأرض أى قذفه من مقره من

السماء بعد إخراج ضحى النجوم، ثم أكمل خلق الأرض ومدها وبسطها وكورها كالأدحوة، وصدق الحق تبارك وتعالى بقوله:

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النازعات)

وبهذا يتضح أن لفظ «دحاها»بمعانيه الثلاثة يصف ما حدث علميا للأرض من قذف من مقرها فى السماء وهى دخان فى البداية، ثم المد والبسط لسطحها وتكوير لشكلها العام كالأدحوة (البيضة) وهذا إعجاز فى التعبير والمعنى لا يقدر عليه إلا الله. ولو أن المفسرين ربطوا بين دحو الأرض فى آية النازعات وطحوها فى آية الشمس وبين الوصف القرآنى للرتق والفتق فى قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾

(الأنبياء: ٣٠)

لاعترفوا بفكرة قذف الأرض من مقرها فى السماء، كما أن المفسرين لو عاشوا عصر الفضاء حين تم تصوير كوكب الأرض من الفضاء لاعترفوا بتكور الأرض كالأدحوة.. وبهذا فإن المعانى الدقيقة لألفاظ الآيات الكونية سر من أسرار الله، فكل معنى يفيده اللفظ أو التعبير من غير خروج على قواعد اللغة هو معنى مراد لله وإن لم يكن معلوما للبشرية فى الماضى. وأن الله سيكشف للبشر عنه ليكون معجزة علمية جديدة للقرآن تثبت أنه حق من عند الله، وصدق تعالى بقوله:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

(جـ) يقول سبحانه فى وصف بناء السماء:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىٍ۟ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الذاريات)

ومعناها أنه سبحانه بنى السماء بقدرته وأنه موسع فيها: وموسع معناها جعل السماء واسعة فسيحة الأرجاء، وأيضا موسع معناها أنه سبحانه بعد بناء السماء يزيد ويوسِّع باستمرار فيها

بابتعاد المجرّات عن بعضها فيما نسميه توسع أو تمدد الكون Expanding Universe طبقا لتوقعات أينشتين فى النسبية العامة حيث تم اكتشافه حديثا بقياس الإزاحة الطيفية الحمراء فى ضوء النجوم والمجرّات أثناء ابتعادها عن بعضها البعض بظاهرة تدعى ظاهرة دوبلر، فالآية الكريمة لها معنيان محتملان غير متعارضين فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾.

إن مسألة اتساع الكون هى أهم وأعظم نتيجة تمخضت عنها نظرية أينشتين فى النسبية وليس هذا بالخيال فقد تحقق أيضا بالرصد ولم يعد هناك جدال أو حجة لمن يتوقفون فى تفسير كلمة ﴿ لَمُوسِعُونَ ﴾ على أنها سعة فى الرزق رغم إضافة الكلمة لقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ أى مضافة للبناء وليس للأرزاق كما فهم المفسرون القدماء ولهم عذرهم لقلة معلوماتهم عن السماء والكون فى عصرهم.

٣- مراعاة احتمال تعدد المعانى العلمية للآية الواحدة:

هناك بالقرآن الكريم آيات كونية متعددة تعطى كل منها معانى علمية متعددة تبين للناس منها على مر الدهور وجها لم يكن قد تبين وناحية علمية لم يكن أحد يعرفها، فيكون هذا بمثابة تجدد للإعجاز العلمى للقرآن فى كل زمان، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

(أ) يقول تعالى:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الحجر)

ومفتاح هذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال الماء لسقيا الناس على إرسال الرياح لواقح (بدليل الفاء فى لفظ أنزلنا) ولم يفكر المفسرون فى هذا الأمر، واعتبروا وصف الرياح باللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر بالجمع بين حبوب اللقاح من أعضاء التذكير وبويضة أعضاء التأنيث فى النبات فيتم الإخصاب بالإضافة إلى المفهوم الظاهرى للريح العقيم، ومع تقدم العلم اكتشف علماء الفيزياء الجوية أن الرياح تثير السحاب أى تكونه وتدفعه حيث تواصل إمداده وتغذيته ببخار الماء (غير المائى الموجود بالجو الذى تحمله وتجلبه معها من البحار والمحيطات، كما أن الرياح تحمل معها ما يسمى بنوى التكاثف وهى عبارة عن دقائق متناهية الصغر تحملها الرياح من نواتج الاحتراق، وذرات الملح من المحيطات، ومقذوفات البراكين والأتربة وشظايا الشهب المحترقة، وكأن هذه النوى حبوب لقاح يتكثف عليها بخار الماء والبرد فيجود السحاب

بالمطر، كما أن الرياح تلعب دورا هاما فى توليد نوعى الشحنات الكهربية الموجبة والسالبة فى السحب، وقد تساعد على اقتراب السحب مختلفة الشحنة كما لو كانت زواجا وتلقيحا، وهكذا يتضح أن التعبير القرآنى بالرياح لواقح يتفق تماما مع أحدث المعلومات الحديثة فى علم الأرصاد، كما يتفق لغويا مع التعبير القرآنى بأن سقوط المطر نتيجة وسبب للصفة اللاقحة للرياح بدليل وجود فاء السببية فى لفظ ﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾ وصدق الحق تبارك وتعالى بقوله سبحانه:

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الحجر)

والتعبير القرآنى ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ إشارة دقيقة إلى الدورة المائية فى الطبيعة التى تم اكتشافها حديثا والتى تجعل الماء فى دورة مستمرة بين البحر والسحاب.

(ب) يقول تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (غافر)

والمعنى الذى فهمه المفسرون بالمجاز المرسل أن كلمة «رزقا» تعنى مطرا وهذا صحيح، ولكن العلماء اكتشفوا أرزاقا متعددة من السماء منها الأشعة الضوئية المرئية فى عملية التمثيل الضوئى لصنع الغذاء فى النبات ولولاها لأصبحت الأرض صعيدا جرزا، وتشغيل دورة الحياة والموت وبدونها لاستحالت الحياة، وتوليد الطاقة الشمسية التى لا تقدر بثمن ولا تنضب، علاوة على أن الشمس هى الأم لجميع مصادر الطاقة على الأرض فالرزق اليوم فى عصر التكنولوجيا يعتمد على توافر الطاقة كما أن العلم اكتشف اتحاد النتروجين بالأكسجين فى عمليات البرق بين سحب السماء الممطرة فيتكون أكاسيد النتروجين التى تذوب فى ماء المطر ويعتبر سمادا طبيعيا للنبات من السماء، علاوة على أن الشهب التى تتساقط بالملايين كل يوم وتحترق فى الغلاف الجوى ويسقط رمادها على الأرض ليزيدها خصوبة وصلاحية للإنتاج والثمار، وهكذا اتسع المفهوم العلمى للرزق من السماء مع ازدياد الاكتشافات العلمية، وهذا هو سر الإعجاز العلمى للقرآن الذى يتجدد مع الزمن، فهل اقتنعت عزيزى القارئ بأن رزق السماء ليس مجازا ولكنه رزق بحقيقة اللفظ؟!.

(جـ) ومن كلمات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ورود لفظ ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ (الكهف: ١٨)

والفتية أصحاب الكهف لبثوا فى كهفهم نائمين ثلاثمائة سنة متصلة وهم أحياء بقدرة الله الذى يعلمنا بأن التقليب أمر ضرورى وحيوى، فقال ابن عباس «حتى لا تأكل الأرض لحومهم» وفعلا أثبت الطب الحديث ذلك، ويحذر المصابين بالكسور والشلل من الرقود مدة طويلة فى الفراش دون تقليبهم بين الحين والحين وقاية لهم من مرض يدعى قرحة الفراش Bed sore فلنتأمل قوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ والمعنى العلمى للتقليب وليس المعنى الظاهرى الدال على الحركة.. وما هذا بقول بشر.. وألف حسرة على المنكرين لكتاب الله ومن لا يتدبرون آياته.

ومن كلمات الإعجاز كلمة ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحجر)

وفى المعجم الوسيط عرج عرجا وعرجانا أى كان فى رجله شىء خلقة فجعله يغمز بها. وانعرج الشىء انعطف ومال.

ويلاحظ أن الحركة فى السماء تأتى بفعل يعرج ومشتقاته تعرج وتعرجون ومعارج أى المسارات المنحنية، ومن العجيب أن يذكر القرآن أسفار الفضاء كلها بالعروج لأن الفضاء لا يعرف الخط المستقيم طبقا للحقيقة المؤكدة فى النظرية النسبية العامة لأينشتين وبدون الدخول هنا فى تفاصيل علمية تؤكد دقة اللفظ القرآنى فى التعبير عن الحقيقة فهل يمكن أن يكون هذا نصا بشريا، كلا والله وألف كلا وصدق تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)

٤ - مراعاة خضوع التفسير لدلالات اللغة العربية

ومن أهم هذه الدلالات ضمير الخطاب فى القرآن وعلى سبيل المثال:

(أ) يقول تعالى:

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النازعات)

ولقد فسر المفسرون جميعا كلمة ﴿ لَيۡلَهَا ﴾ بأنها ليل الأرض المعهود لهم مع أن الضمير في ﴿لَيۡلَهَا﴾ راجع إلى السماء في أول الآيات، وجعلوا يلتمسون المبررات لصرف الضمير عن ظاهره حتى جاء العلم الحديث فأثبت عند ارتياد الفضاء أن السماء حالكة السواد رغم وجود الشمس لعدم توافر الدقائق الذرية والترابية التي تقوم بتشتيت الضوء. لأن الضوء في ذاته لا يمكن رؤيته إلا منعكسا عن المرئيات، وهذه غير متوافرة في الفضاء الكوني الذي يراه رواد الفضاء حالكا ودائم السواد بدليل الوصف القرآني بالفعل «أغطش» أي جعله حالك السواد، ولقد رأينا جميعا على شاشات التليفزيون صورة كوكب الأرض وهو يسبح في ظلام الفضاء الكوني وسماء القمر حالكة الظلام لانعدام الغلاف الجوي، فهل يجوز أن تستمر المغالطة ونعتبر الضمير في كلمة ﴿ لَيۡلَهَا ﴾ عائدا على ليل الأرض مجازا بينما يؤكد القرآن حقيقة ظلام الفضاء الكوني (الليل الدائم للسماء) في آية أخرى في قوله تعالى:

﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر)

والتعبير القرآني ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا ﴾ تعبير علمي بليغ عن ظاهرة كونية لم تكتشف إلا بعد ارتياد الفضاء حيث لاحظ الرواد أن أبصارهم قد سكرت أي سدت أو عميت أو أخذت كرد فعل لهذا الظلام الدامس رغم بزوغ الشمس في الفضاء، وبهذا فإن الضمير في ﴿لَيۡلَهَا﴾ في النازعات يعود على ليل السماء لا ليل الأرض، وأن لفظ أغطش يؤدي معنى الظلام الدامس للفضاء الكوني ويتفق مع آية الحجر ١٥.

(ب) يقول تعالى:

﴿ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (فصلت)

وهنا تأتي الدلالة بضمير الجمع المؤنث بدلا من ضمير المثنى كما تقتضيه اللغة لو كان المعنى مقصورا على شمسنا وقمرنا فقط وحيث إن أداة التعريف (ال) في الآية الكريمة صادقة الدلالة بوجهيها «للعهد» بدلالة قوله تعالى: ﴿ لَا تَسۡجُدُواْ ﴾ فالنهي عن السجود لشيء مرئي وهما الشمس والقمر التابعين لنا نحن سكان المجموعة الشمسية وكذلك فإن أداة التعريف (ال) قد جاءت هنا أيضا «للجنس» بقرينة ضمير الجمع في لفظ ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ ولقد اكتشف العلم حديثا أن بلايين النجوم شموس وأن في السماء أقمارا غير قمرنا وصل عددها في مجموعتنا الشمسية إلى حوالي ٦٠ قمرا فما بالك بالمجموعات النجمية الأخرى في الكون. وبهذا يتضح

الإعجاز المزدوج العلمى واللغوى فى هذه الآية الكريمة والتى تتنبأ بتعدد الشموس والأقمار فى الكون.

(جـ) وقوله تعالى:

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢٣)

كناية بكلمة الحرث عن المعاشرة الزوجية. وهى كناية لطيفة دقيقة مصورة ومؤدبة ومهذبة فيها من روعة التعبير وجمال التصوير مالا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن فينظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجة فى هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذى يخرجه الحرث وذلك النبت الذى تخرجه الزوجة وما فى كليهما من تكثير وعمران وفلاح.. علاوة على أن تحديد نوع الجنين يعتمد على بذرة الرجل أى الحيوان المنوى وليس على بويضة الأنثى فكان الرجل هو الزارع!

مصداقا لقوله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

(النجم)

وقوله سبحانه مشيرا إلى تحديد النوع من منى الرجل:

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (القيامة)

وهذا إعجاز طبى فى علم الأجنة والهندسة الوراثية الذى أكد حديثا هذه الحقيقة ومازال بعض الرجال عندنا يحزن إذا بشروه بالأنثى بل وينذر زوجته بالهجر والطلاق أو الزواج عليها إذا استمرت فى ولادة الإناث، وأهدى لهؤلاء الرجال هذه الآيات القرآنية ليعرفوا مسئوليتهم فى هذه القضية.

٥ - مراعاة عدم العدول عن الحقيقة إلى المجاز فى فهم الألفاظ

وهذا شرط جوهرى يجب التمسك به إلا إذا قامت القرائن فى سياق الآية تمنع بوضوح من استخدام حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه، فلقد تبين أن مخالفة هذه القاعدة الأساسية أدت إلى الكثير من أخطاء التفسير القديم، وتصادم التأويل مع نصوص قرآنية أخرى، وعدم تطابق آيات القرآن مع آيات الفطرة، وفيما يلى أمثلة من خطورة الانتقال من الحقيقة إلى المجاز دون مبرر.

(أ) يقول الله تعالى:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾ (الانشقاق)

ولقد اعتبر المفسرون جميعا هذه الآية من آيات القيامة، وانتقلوا دون مبرر من حقيقة اللفظ إلى مجازه فقالوا: لتركبن طبقا عن طبق، أى لتلاقن أهوالا وشدائد فى الآخرة أو لتواجهن حالا بعد حال، هى الموت والبعث والقيامة والعذاب، وقال البعض لتواجهن فى الدنيا حالا بعد حال وأمرا بعد أمر. أى رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقرا بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقما بعد صحة، وقال آخرون منزلة بعد منزلة، وقرأها ابن مسعود لَتَرْكَبَنَّ بفتح الباء (وليس بضمها) خطابا للنبى وحده أى لتركبن يا محمد حالا بعد حال إشارة إلى رحلة الإسراء والمعراج فقيل لتركبن يا محمد سماء بعد سماء.. ، وابتعدوا بذلك عن المعنى الحقيقى فى لفظ الركوب والأطباق ولو التزموا بالمعنى الحقيقى وبضمير الجمع فى الفعل «لتركبن» وربطوه بالقسم الدنيوى باعتباره جوابا للقسم فى قوله تعالى:

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الانشقاق)

لأدركوا أن هذا حدث دنيوى يمثل المعجزة الكبرى وهى وصول الإنسان إلى القمر راكبا طبقا عن طبق فى رحلات فضائية متعددة فى رحلات أبوللو ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧ بين عامى ١٩٦٩، ١٩٧٢ وهم يركبون فعلا طبقا عن طبق؛ ولهذا يوبخ الله (سبحانه وتعالى(كل من ركب طبقا عن طبق من أجل هذا القمر ولم يسجد لله عز وجل فى الاستفهام الاستنكارى:

﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾

(الانشقاق)

وهذا عتاب فى الدنيا وليس فى الآخرة، كما فهم المفسرون قديما لأن القرآن لن تعاد قراءته فى الآخرة أملا فى سجودهم فلا عتاب فى الآخرة لأنها دار جزاء وليست دار عمل كما فى قوله تعالى:

﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (الروم)

وبهذا فإن التفسير المجازى القديم لآيات الانشقاق (١٦ - ٢١) صرف النظر عن أهم أحداث القرن العشرين وإعجاز الإشارة إليه قرآنيا بحقيقة اللفظ وأعنى وصول الإنسان للقمر، بل واصطدام التفسير المجازى القديم فى نتائجه مع آيات قرآنية أخرى ولابد من التمسك بالمعنى الحقيقى للفظ أولا قبل اللجوء إلى المجاز.

فها هو جواب القسم قد تحقق. والمذهل أن الله عز وجل فى علمه السرمدى المحيط من قبل ومن بعد يعلم أن الذين سينجحون فى الركوب طبقا عن طبق للوصول للقمر هم من غير المسلمين، ولذلك قال بعدها فما لهم لا يؤمنون؟ ولو كان المسلمون المؤمنون هم الذين سبقوا إلى غزو الفضاء لكان ورود هذا الاستفهام الاستنكارى بعدها غريبا فسبحان علام الغيوب، وصدق الله العظيم ونحن على ذلك من الشاهدين.. وهذه إرادة الله أن يظهر هذا الإعجاز فى ثلاث كلمات ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ لتعبر عن أعظم أحداث القرن العشرين، فهل بعد ذلك إعجاز.. حقا إن القرآن كلام الله وإن محمدا رسول الله.

(ب) يقول تعالى:

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ (السجدة)

ولقد اعتبر المفسرون اليوم هنا يومًا من أيام الله! وأنه يعادل ألف سنة وأنه يوم من أيام القيامة وهو طويل من شدة العذاب، وبهذا انتقلوا من الحقيقة إلى المجاز فاليوم هنا مما نعد نحن البشر طبقا لنص الآية ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ فما الداعى للجوء للمجاز؟ ولو تتبعنا حقيقة الألفاظ ودلالة المعنى بأن هذا أمر كونى سريع الحركة جدا لدرجة أنه طبقا للوصف القرآنى فى هذه الآية، يقطع فى يوم أرضى مسافة مساوية للمسافة التى يقطعها القمر فى مداره حول الأرض خلال ألف سنة قمرية أى من السنين التى نعدها ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ وبهذا التفسير العلمى المنطقى تمكنت بحمد الله من وضع معادلة قرآنية لحساب السرعة الكونية العظمى من هذه الآية[1]. وبهذا انطبقت المعانى العلمية لهذه الآية القرآنية مع أعظم قانون عرفته البشرية فى النسبية الخاصة لأينشتين الذى ينص على أن سرعة الضوء هى الرقم المطلق الوحيد فى الكون، ويمثل أعلى سرعة كونية فى العالم الفيزيائى الملموس والتى مقدارها أو

---

(١) لإعجاز القرآن فى آفاق الزمان والمكان - المؤلف دار الفكر العربى ١٩٩٦.
- الإشارات القرآنية للسرعة العظمى والنسبية. (دار المعارف).
- سلسلة المعارف الكونية للمؤلف دار الفكر العربى.

حدها هو سرعة الضوء فى الفراغ أو الهواء وهذا القانون حقيقة مؤكدة بالدليل التجريبى وليست فرضا خاضعا للتغيير.

ولابد هنا أن نشير إلى بعض أنواع المجاز التى لا مفر من استخدامها لفهم آيات أخرى كما فى قوله تعالى:

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(يوسف)

والمراد بالمعنى «أصحاب القرية» و «أصحاب العير» وهذا يعرف لغويا بالاستعارة أو المجاز المرسل أو المجاز بالحذف.. وهناك نوع يسمى بالمجاز العقلى كما فى قوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ (المزمل)

والمراد بها أن الولدان الذين هم الأطفال لو جاز أن يشيبوا لهول أحداث يوم القيامة لشابوا لعظم أهواله وفظاعة أحواله! كما تشير أيضا بعض روائع الاستعارة فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ (التكوير)

ولفظ تنفس هنا بمعنى خروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر، فما أجمل هذه الاستعارة التى بلغت من الحس أقصاه وتربعت على عرش الجمال بنظمها الفريد فلقد خلعت على الصبح الحياة حتى صار كذلك حيا يتنفس فتتنفس معه حياة ويهب النشاط فى الأحياء على وجه الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢)

وبهذا شبه القرآن الكريم الموج الذى تمخر عبابه سفينة نوح عليه السلام بالجبال فى الضخامة والارتفاع فياله من تشبيه رائع جميل يصور للعين هذه الأمواج المتلاطمة كما يصور للنفس ما يحس به ركاب السفينة من خوف.

وقوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ (القارعة)

فتأملْ كلمة الفراش التى تصور لك بظلها وإيحائها ضعف الناس وضآلتهم يوم القيامة وهم متدافعون يتخبطون من هول هذا اليوم، علاوة على إثبات البعث بهذا التشبيه لأن دورة حياة الفراش تمر بثلاثة أطوار هى: (الدودة وتمثل الدنيا)، والشرنقة وتمثل «الوفاة والقبر»، وأخيرا

الفراشة تمثل «البعث». كما أن تصوير الجبال بالعهن المنفوش تصوير لتحول الجبال الضخمة في الآخرة وهي في منتهى الهشاشة والخفة، إنه حقا النظم القرآني الذي يبهر العقول ويطير بالألباب.

٦ — التثبت من حقائق العلم وعدم إقحامها في غير موضعها

على القائم بمهمة التفسير العلمي للآيات الكونية أن يأخذ فقط بالحقائق العلمية الثابتة ويبتعد عن النظريات والآراء والفروض الظنية. ولا ينبغي للباحثين الغيورين أن يعقدوا سباقا بين آيات القرآن وعلوم البشر والاكتشافات العلمية؛ لأن القرآن يعالج الأمور الكلية الخالدة خلودا أبديا، وأما علوم البشر فهي لا تعدو أن تكون لمحات يسيرة من علم الله الشامل الكامل. وإن من السذاجة أن يتصور البعض أن النبي ﷺ مبعوث ليوضح قوانين الطفو أو انشطار الذرة. إنما بعث لهداية البشر جميعا، ويقوم لهذه المهمة ورثته من العلماء على مر الأيام حتى تقوم الساعة.

وفيما يلي بعض الأمثلة التي تبين الإسراف فيما يسمى بالتفسير العلمي للآيات الكونية:

(أ) إن الإنسان حين ركب الفضاء وتجول في ربوعه ظهر من يقول إن سفينة الفضاء هي المقصودة بالدابة التي تخرج لتكلم الناس إشارة إلى الآية الكريمة في قول الله تعالى:

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (النمل)

فكيف يتصور صاحب هذا الرأي بأن الدابة هي سفينة الفضاء بينما الدابة لابد أن تكون مخلوقة من الماء طبقا للوصف القرآني في قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ (النور)

وبهذا يتضح أن الدابة التي تكلم الناس لم تخرج بعد. وسوف تكون من معجزات القرآن في المستقبل، ولقد وقع المفسرون القدماء أيضا في بحر من الخرافات والإسرائيليات فمنهم من قال إن الدابة هي عصا موسى، ومنهم من قال إن طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان، وقيل لها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن آيل وعنق نعامة وصدر أسد وذنب كبش وخف بعير وتخرج من الصفا فتكلم الناس بالعربية قائلة: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون!! ولقد احتوت هذه الرواية على المزيد من الأمور المثيرة للضحك.

واعتمدت على الخيال والظن وليس على العلم اليقينى. عموما فإن معجزة الدابة التى تخرج من الأرض وتكلم الناس لم تحدث بَعْد وهى من إعجاز المستقبل للقرآن الكريم.

(ب) فسر أحد كتاب الإعجاز العلمى قوله تعالى:

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(الأعراف: ١٨٩)

بأن النفس هى البروتون والزوج هو الإليكترون وهما العنصران اللذان تتكون منهما الذرة! ويقول: إن هذه الحقيقة العلمية التى يتيه بها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة فى صراحة ووضوح!

وهذا أسلوب فاسد مرفوض فى التفسير، فهو يلوى عنق الآية لتتفق مع نظرية علمية دون مبرر متصورا بأن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، علاوة على سوء الفهم لطبيعة القرآن ووظيفته. ويقول أحد المفسرين القدامى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ١٢) أن الأرضين عددها سبع (وهذا صحيح بنص الآية) ولكنه استطرد قائلا: إن بين كل أرض والتى تليها خمسمائة عام والأولى منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه فى السماء والحوت على صخرة، والصخرة بيت ملك والثانية مسكن الريح والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريت والخامسة فيها حيَّاتها والسادسة فيها عقاربها والسابعة فيها سقر وفيها إبليس وصفد بالحديد يد أمامه ويد خلفه يطلقه الله لمن يشاء! وهذا كلام منكر كما يقول الشيخ الذهبى؛ لأنه موضوع مكذوب ولا يعتمد عليه ولا يؤخذ به.

والمشكلة تكمن أيضا فى إسناد بعض هذه الخرافات بأحاديث مكذوبة على رسول الله يحكم عليها كل ذى عقل بأنها ملصقة بالنبى ﷺ زورا وأنها ركيكة اللفظ والمعنى ومنشؤها إسرائيليات وليس عليها شىء من نور النبوة.. وللأسف يتوارثها الأجيال، بل وأعادوا نسخها بما دس فيها من روايات ضالة وأساطير وخرافات حتى وصلت إلينا وكأنها من التفسير نفسه، وهنا تأتى مهمة الأزهر الشريف فى تنقية كتب التفسير.. فهذه مسئولية وضرورة تستلزم الأخذ بالتفسير العلمى فى الآيات الكونية. وعندنا والحمد لله الراسخون فى العلم يقدمون لنا من أسرار هذه الآيات ما يدهش العقول ويبهر الألباب. كما أن هناك من المفسرين القدماء من انكشف عنهم الحجاب فى بعض آيات القرآن الذى لا تنقضى عجائبه وفيه من ذلك ما يكفى الناس لآخر الزمان وإلى أن تقوم الساعة.

٧- عدم تعارض التفسير المقترح مع نص قرآنى آخر

لجأ المفسرون القدماء إلى تفسير بعض الآيات الكونية تفسيرا أخرويا لعدم إدراكهم النواحى العلمية التى تشير إليها هذه الآيات؛ مما أدى إلى اصطدام تفسيرهم بنصوص قرآنية أخرى.

ورغم هذا يصر بعض علماء الديـن حتـى الآن علـى أن هـذه الآيـات قيامـة ولا دخـل للإعجـاز العلمى فى نصوصها مثال ذلك:

قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (النمل)

ويقول العلمـاء المتخصصـون فـى الفيزيـاء الفلكيـة: إن هـذه الآيـة إشـارة إلى حركـة الأرض وجريانها فى الفضاء، فالسحاب كما هو معروف لا يتحـرك بذاتـه ولكـن ينتقـل محمـولا علـى الرياح، وكذلك الجبال يراها الرائى فيظنها جامدة فى مكانها (وهى تمر بسرعة محمولة أيضـا) لأن الرائى موجود فى نفس القطار المتمثل فى كوكب الأرض التى تجرى مسـرعة بالجبـال كمـا تسرع الرياح بالسحاب، والتشبيه القرآنى هنا تشبيه بليغ فكلا الأمرين مـن صنـع الله. وهنـاك ثلاثة احتمالات علمية صحيحة لتفسير الآية منـها حركـة كوكـب الأرض فـى الفضـاء وعوامـل التعرية وإزاحة القارات وليس عجيبا أن يفوت المفسرين جميعا هذه المعانى لأنـهم لم يعرفـوا أن الأرض متحركة تجرى فى الفضاء يوميا حول نفسها وسنويا حول الشمس، كما أنهم لم يدرسـوا علم الجيولوجيا أو الفلك الحديث، ومن هنا حرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق فـى الآيـة من أن الظاهرة فيها من إتقان الصنع ما يدل على جلال حكمته وقدرتـه سـبحانه، ولقـد أخطـأ المفسرون فى فهم هذه الآية للأسباب التالية:

(أ) اعتبار الآية من آيات القيامة بدعوى أنها وردت ضمن آيات القيامة الواردة فـى سـورة النمل من ٨٣ – ٩٠ مع أن الآية ٨٦ فسروها من أحداث الدنيا فى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ﴾

(النمل: ٨٦)

بينما أنكروا التفسير الدنيوى على الآية ٨٨ فى قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ مع أنها فى نفس السياق وبهذا سقطت حجتهم.

(ب) القيامة ليس فيها حسبان أو ظن لأنها عالم اليقين بدليل قوله تعالى:

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ (التكاثر) وبذلك فإن قولـه سبحانه: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ ﴾ لا ينطبق على حوادث القيامة.

(جـ) الجبال لن تكون موجودة فـى القيامـة ممـا يجعـل التفسـير الأخـروى لآيـة النمـل ٨٨ متعارضا مع آيات قرآنية أخرى تؤكد زوال الجبال يوم القيامة فى قوله سبحانه:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (طه)

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ (التكوير) وقوله عز وجل:

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ (القارعة)

فكيف سنرى ونتأمل الجبال يوم القيامة رغم أن هذه الجبال لن تكون موجودة.

(د) حركة الجبال فى آية النمل ٨٨ حركـة فـى الدنيـا وليسـت فـى الآخـرة بدليـل قولـه تعالى:

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (النمل)

والخراب والدمـــار يوم القيامة لا يسمى صنعا، كما أن ختام الآية بعبارة :

﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى إن الله يعلم ما تفعلونه فى الدنيا وليس الآخـرة؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل.

ولو عرف المفسرون القدماء وتابعوهم من علماء الدين حاليا ما نعرفه اليوم من دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وما يترتب على هذه الحركة من منافع للناس تماما مثل المنافع التى أودعـها الله فى حركة الرياح الحاملة للسحاب لكبروا الله وتسارعوا إلى هـذا المعنـى العلمـى الجديـد الـذى يكشف الإعجاز العلمى للقرآن فى عالم الشهادة ولا يتعارض مع النصوص القرآنيـة الأخـرى، بـل ويؤكد المعنى المتبادر من التشبيه التمثيلى بالسحاب ومن القرائن الحسية والبلاغية فـى هـذه الآيـة الموجهة للإنسان فى كل عصر كآية من آيات الله الكبرى عله يهتدى بها إلى الله.

– هناك مثال آخر فى قوله تعالى:

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ
فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الرحمن)

وتفسير هذه الآيات أخروى تعجيزى للتحدى الإلهى فى جميع التفاسير القديمة بل ويوافق الكثير من رجال الدين المعاصرين على أنها حوادث قيامة لتعجيز أى محاولة من جانب الجن أو الإنس للهرب من عذاب الله يوم القيامة حيث يسوقهم الله إلى المحشر بشواظ النار والنحاس.

ومن وجهة نظرى فإنها آيات دنيوية وليست أخروية وأنها تشير إلى عصر الفضاء الذى نعيش فيه حالياً والدليل على ذلك ما يلى:

(أ) الله سبحانه لا يتحدى فى المستحيل لأنه لا يمكن الهرب أو محاولة الهرب من قبضة الله يوم القيامة لقوله تعالى:

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ (القيامة)

(ب) جميع السموات والأرضين غير موجودة فى القيامة بدليل قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(إبراهيم: ٤٨)

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ ﴾

(الأنبياء: ١٠٤)

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ﴾

(الزمر: ٦٧)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ (فاطر: ٤١)

وغير ذلك من آيات كثيرة تدل على زوال الكون الحالى يوم القيامة فكيف يتحدى الله الجن والإنس بالنفاذ من أقطار غير موجودة فى ذلك اليوم العصيب!!

(جـ) قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٧).

فى أعقاب الآيات المذكورة فى سورة الرحمن (٣١ - ٣٦) ونلاحظ أن الفاء هنا جاءت للترتيب والتعقيب لتصف سماء القيامة بعد وصف محاولة غزو الفضاء فى أقطار السموات والأرض فى الدنيا وليس الآخرة.

(د) يسألنى الكثيرون كيف يستطيع الإنسان أن ينفذ من أقطار السموات علما بأن السموات تتسع لبلايين السنين الضوئية؟. والرد هنا من خلال الإعجاز البلاغى للآية حيث إن بها من غرائب القرآن ما يسمى الإيجاز بالحذف علاوة على لف ونشر مرتب، وهذا ما يفهمه أهل اللغة. فالمقصود هو:

يا معشر الجن إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات ويا معشر الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار الأرض. فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان.

لأن لكل من الجن والإنس أقطارًا متأهبة لقدرتهما بشرط توفر السلطان الإلهى. فالجن سرعته قد تفوق سرعة الضوء ولديه إمكانيات وحيل بهلوانية تتيح له اختراق أقطار السموات والأرض كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى الآيات (الجن ٨ – ١٠)، (الصافات من ٦ – ١٠) أما الإنسان فهو ميسر لما خلق له فى حدود أقطار الأرض فقط والله أعلم.

(هـ) يسأل البعض عن أننا إذا وافقنا بأن هذه الآيات إشارة لغزو الإنسان للقضاء فلن ينجح هذا الغزو نظرا للتهديد الإلهى فى قوله عز وجل:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٥)

أقول لهؤلاء: إن هذا الشواظ ليس تهديدا بل تحذيرا من خالق الكون العليم بأخطار الفضاء، والتحذير نعمة من الله لا تمنع من إجراء المحاولة بل تشير إلى واجب الإنسان فى اتخاذ الاحتياطات اللازمة عند القيام بالنفاذ. فالله سبحانه يقول لنا: انفذوا ولن نأخذكم على غرة ولكن أمامكم مشاكل فى ارتياد الفضاء، تماما مع الفارق فى التشبيه عندما ننصح أطفالنا بالحذر عند عبور الشوارع من الأخطار المتوقعة.

كما أن الفعل «يرسل» أتى بالآية هنا مرفوعا بالضمة مما يفيد بأنها جملة خبرية وليست شرطية، وبذلك فليس فى هذا تعجيز أو منع أو استحالة من إجراء محاولة النفاذ، ولكنها إشارة إلى عنصر المفاجأة والمجهول، فالفعل «يُرْسَلُ» مبنى للمجهول، مشيرا إلى بعض الحوادث القاتلة التى حدثت وسوف تحدث عند ارتياد الفضاء إذا أراد الله ذلك أى إذا لم يتوافر لهم السلطان الإلهى الذى يحميهم من هذه الكوارث. أى إن الشواظ ليس جواب شرط للنفاذ، وهذا هو المهم لندرك أن هذه الآيات تشير إلى إمكانية نجاح الإنسان فى ارتياد الفضاء فى هذا العصر بسلطان من الله عز وجل.

(و) قد يسأل الناس: لماذا الجمع بين الجن والإنس فى ارتياد الفضاء رغم اختلاف قدرات كل منهم. وأقول: إن هذا الجمع هدفه هو تغطية معجزة لن تحدث إلا فى عصر الفضاء حتى يتقبل الناس النبأ ولا يحدث تكذيب للقرآن وقت النزول، ثم بعد حين يكشف الله الغطاء عن المعنى ويستقر النبأ كما فى قوله تعالى:

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنعام)

هذا موجز لبعض الأمثلة التى فات على المفسرين إدراكها لأنهم لم يعيشوا عصر الفضاء وعصر العلم، فلقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل القرآن بأسلوب لا يصطدم البديهى المسلم به عند الناس فيكذبوه ويكذبوا الرسول ويتهموه بالجنون لو حدثهم مباشرة فى عصر الوحى عن تحرك الأرض وغزو الفضاء.

لهذا فالقرآن يخاطب كل العقول بأسلوب يناسب كل العصور، ولا يتنافى مع الحقيقة الكونية تحاشيا لتكذيبه فى المستقبل من أهل العلم. هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير هو قمة الإعجاز لأنه كلام الله!

٨ - مراعاة عظمة القرآن معجزا ومحفوظا ومهيمنا على الكتب السابقة

لقد أثنى الله سبحانه على القرآن وأقسم به كما فى قوله تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ (هود)

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ (ق)

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (البقرة)

كما أكد الله سبحانه أنه لا تحوير فى القرآن لأنه عز وجل تعهده بالحفظ فى قوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر)

والإعجاز فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ لا يقتصر على حفظه منذ نزوله حتى قيام الساعة دون تحريف أو تبديل وإنما هناك وجه آخر للإعجاز فى كلمة ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ يدركه جيدا أصحاب الفطرة السليمة ممن يتأملونها بقلب مفتوح وعقل راجح ومنطق بديهى، فهذه الكلمة لا يمكن أن يقولها بشر أبدا إن كان هو الذى وضع القرآن وذلك لأن كل إنسان يعلم جيدًا أنه ميت مهما طال به الأجل فمن أين يضمن حفظ كتابه بعد مماته حتى يجزم ويقرر ذلك فى حياته. ونحن نسمع حتى اليوم[1] عن سرقات الأعمال الفكرية حتى فى حياة المؤلف.. فمن من البشر فى الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان يضع كتابه (كما يتخيل الكافرون) وينسبه للخالق ثم يجزم ليذكر كلمة تعرض دعوته للخطر.. لا والله لا يقولها بشر أبدا، وإنما يقولها صاحب التنزيل عالم الغيب والشهادة وحافظ الكتاب، الرحمن، علم القرآن.

ومن عجيب جوانب عظمة القرآن ما وصفه الله به أنه مصدق لما سبقه من الكتب ومهيمن عليها كما فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨)

والآيات الكونية مقياس لصدق القرآن ونقائه، فلقد كفر الغرب بدينه وكتبه المقدسة لما رآها لا تتفق مع ما وصل إليه العلم الحديث من حقائق علمية وكونية، ولقد وجد علماء الغرب أن التوراة والإنجيل مثلا توزع أطوار خلق الكون على أيام الأسبوع قبل أن يكون لتلك الأيام وجود ثم

---

(١) إعجاز الكلمة فى القرآن، دكتور فاروق عبد السلام مركز المجتمع الإعلامى.

تزعم أن الله سبحانه وتعالى تعب من هذا المجهود فاستراح فى اليوم السابع (يوم السبت) لكن الآيات الكونية فى القرآن ليس فيها شيء مما أضل الناس فى الغرب عن دينهم، ولكن للأسف الشديد فلقد احتوت كتب التفسير على خرافات وإسرائيليات بالنسبة لتفسير الأيام الستة للخلق التى وردت فى القرآن الكريم بل وردت أحاديث مشابهة لما ورد فى التوراة والإنجيل (من كلام البشر) ومنسوبة ظلما للرسول ﷺ عن أبى هريرة رضى الله عنه لتفسير قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(ق: ٣٨)

أن الرسول ﷺ قال لأبى هريرة: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبعث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق فى آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل» (رواه مسلم).

وأعتقد من وجهة نظرى أن هذا الحديث غير صحيح لأنه مشابه لقصة الخلق فى التوراة والإنجيل، بل ويتعارض مع النصوص القرآنية التى تفصل هذه الأيام الستة فى سورة فصلت. وأن اليوم فى القرآن أتى بمفهوم المرحلة الزمنية التى قد تطول إلى بلايين السنين إذا كان اليوم من أيام خلق الكون الستة، ولقد حاولت إيضاح هذا الموضوع فى ضوء العلم الحديث ونور القرآن الكريم بعيدا عن روايات التوراة والإنجيل وعن التفاسير السابقة وما بها من إسرائيليات فى هذا الموضوع واستبعاد للحديث السابق لضعف روايته وَوَصَلْتُ فى النهاية إلى تقدير لعمر الكون (حتى وصول الإنسان) يقدر بحوالى ١٣,٣ بليون سنة يتفق والتوقعات العلمية، والله أعلم.

واستبعاد الأحاديث النبوية الضعيفة أمر جائز ما دامت تصطدم مع العلم أو العقل وتصطدم مع القرآن، ولقد ضحك النبى ﷺ عندما جاءه الحبر فيما روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «إنا نجد يا محمد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع، ويقول «أنا الملك»، هذا هو كلام الحبر، فضحك النبى ثم قرأ الوحى فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(الزمر: ٦٧)

والخطأ فى كلام الحبر واضح فإن الأرضين تشمل كل ما عليها من شجر وماء وتراب وخلائق وكان الرد عليه بالقرآن وليس من المعقول أن يضحك النبى على الخرافات التى ذكرها الحبر اليهودى ثم يردد نفس كلام اليهودى عن الأيام الستة فى الحديث السابق ذكره رغم تعارضه مع القرآن الذى لم يحدد أيام الخلق بأيام الأرض التى نعدها بأيام الأسبوع. والمهم هنا أن القرآن مهيمن على الكتب السابقة وهذه حقيقة يجب أن تكون منهجا لمن يفسر الآيات الكونية، بل لجميع المفسرين.

٩ - استخدام الآيات الكونية القرآنية للحكم على صحة أو بطلان نظرية محتملة:

هناك نظريات محتملة لم يجد العلم لها إثباتا أو برهانا يقينيا حتى الآن وهذه النظريات تعالج قضايا غيبية مثل نشأة الكون وعمر الكون وتعدد العوالم وانشقاق القمر وتكور الشمس فى المستقبل وغير ذلك من أنباء الغيب التى أنزلها الله فى كتابه على لسان رسوله ويبحث العلم فيها الآن، ومازالت محل فحص وتمحيص، وبهذا يمكن الاستعانة بالقرآن الكريم للحكم على النظريات التى تعالج هذه القضايا بالصحة أو بالبطلان طبقا لموافقتها أو مخالفتها للنص القرآنى وهذا أمر مشروع لأن خالق الكون هو منزل القرآن ولا يوجد تعارض بين العلم والقرآن إلا إذا ضل العلم طريقه أو أخطأ المفسرون فى فهم الآية الكونية القرآنية، وعلى سبيل المثال:

قضية وجود حياة على أرض غير أرضنا يبحثها العلم الآن ويلهث وراء الكشف عنها بتحليل الأحماض الأمينية فى النيازك التى تسقط على الأرض واستعمال التليسكوبات الراديوية فى فحص الخطوط الطيفية للبحث عن جزيئات بخار الماء باعتبارها أساسية لخلق الحياة وذلك فيما وراء المجموعة الشمسية فى سحب ما بين النجوم، وكذلك إرسال إشارات إلى النظم الكوكبية فى المجرات المنتشرة بالبلايين فى الكون لعلنا نعثر على رد لهذه الإشارات من كائن حى ذكى مثل الإنسان، وتتعدد المحاولات حتى الآن دون جدوى! ورغم هذا يقول العلماء: إن وجود الحياة على غير كوكبنا أمر ممكن بل أمر راجح ومنطقى.

والسؤال الآن: هل فى القرآن الكريم ما يؤيد هذا الرأى العلمى المحتمل؟ إذا تدبرنا القرآن الكريم فسنجد الجواب على هذا السؤال المحير الذى شغل فكر الإنسان منذ بدء الخليقة ويمثل حتى الآن أهم وأخطر سؤال فى الفلك! هل هناك حياة مماثلة لحياة الأرض فى مكان ما من هذا الكون؟ سؤال يتحدى ذكاء العقل البشرى؟ وقد تتعجب أن الجواب عليه موجود بالقرآن، يقول تعالى فى فاتحة الكتاب:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (الفاتحة)

ولقد التمس الناس قديما تلك العوالم المتعددة وقالوا هى عوالم الحيوان والنبات والجماد وقالوا هى عوالم الإنس والجن والملائكة ولكن ليس كل ذلك كافيا لتوضيح معنى اللفظ القرآنى «العالمين» بالجمع المعرف «بال» لا بالجمع المنكر.

وأنت إذا قلت «العالم» لا تفهم إلا عالما واحدا معهودا لنا هو هذا الشامل لكل ما نرى من أرض وسماء وإذا أخذنا بحرفية اللفظ كان عالمنا هذا واحدا من عوالم مثله، ولا شك أن كلمة العالمين، فاجأت العرب، كما أن الناس حتى يومنا هذا لا يتحدثون إلا عن عالم واحد هو الذى نبصر ونحس ونعيش فيه، ولكن علم الفلك الحديث أثبت لنا أن المجموعة الشمسية التى نحن

فيها ومنها ما هى إلا عالم واحد من بلايين العوالم فى بلايين المجرات المنتشرة فى هذا الكون، وأن عدد الكواكب التى تدور حول بلايين النجوم والتى لها ظروف مثل كوكب الأرض أى تصلح للحياة يصل إلى بلايين البلايين ولكن السؤال هنا كم كوكبًا من هذه الكواكب به حياة؟ لا أحد يدرى!!! ولكن القرآن الكريم يؤكد تعدد العوالم بالمفهوم الفلكى. أى يؤكد وجود أرضين أخرى مثل أرضنا (وليس بمفهوم عوالم الجن والملائكة) كما يتضح فى قوله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (فصلت)

«والعالمين» هنا لها مفهوم فلكى من سياق الآية وموضوعها وكأنه تعالى يقول: «ذلك رب الأرضين» وجمع الأرض وارد قرآنيا لأن الله يؤكد أن عدد السموات هو عدد الأرضين كما فى قوله سبحانه:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾
(الطلاق: ١٢)

إن أداة التعريف «ال» فى لفظ الأرض هنا للجنس لا للعهد، بدليل قوله تعالى: ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾، والسموات السبع متعددة فلابد أن تكون الأرضون السبع متعددة أيضا على نفس النحو والنمط لتتحقق المثلية المنصوص عنها فى الآية، لا أنهن سبع طبقات فى أرضنا هذه كما فهم بعض الناس تفسيرا لا يتفق مع اللغة ولا مع العلم ولا مع القرآن ولا مع الحديث الشريف فى قول الرسول الكريم «اللهم رب السموات السبع وما أظلت ورب الأرضين السبع وما أقلت» لمن يدقق فى فهم الحديث وتوجيهه على المعنى المألوف علاوة على أن السموات فى هذه الآية لم توصف بكلمة «طباقا» كما هو المألوف فى القرآن مما يصرف النظر عن التفكير فى طبقات سبع للأرض. وهذه النتيجة التى تتفق مع حرفية القرآن وحمله على الحقيقة اللغوية لا على المجاز تحل لنا لغز الإجابة على السؤال المحير: هل هناك حياة على الأرضين الأخرى؟ وهل لفظ الأرض فى القرآن خاص بكل كوكب يحتوى على الماء والحياة؟

نحن نفهم من الآية السابقة والحديث الشريف أن لكل أرض سماء تعلوها، فاللغة تقول إن السماء ما علا الأرض وإن هناك مقابلة بينهما كما يتضح من بديعيات قوله تعالى فى الآية التالية التى تبين أيضا ارتباط الماء بالأرض ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾

(هود: ٤٤) والعلم لا يعرف إلى الآن ما هى السموات السبع ولكن القرآن يؤكد أن هناك غير السماء المقابلة لأرضنا ست سموات أخرى وأن هناك غير أرضنا ست أرضين أخرى، ولكل أرض سماؤها وأن هذه الأرضين والسموات يتنزل بينهن الأمر الإلهى، وأن الله قد أحاط علما بهذه الحقيقة وأن الأرضين الست مشابهة تماما لظروف أرضنا حتى تتحقق المثلية فى الآية (الطلاق: ١٢) والمثلية تقتضى وجود حياة على تلك الأرضين وخاصة أن لكل منها ماءها وهذا ما تؤكده آيات أخرى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾

(النازعات)

١٠ - الاستعانة بتفسير القرآن للقرآن لتوضيح القضايا الكونية كلما أمكن ذلك:

فى القضية السابقة «تعدد العوالم» عرفنا أن الأرضين متعددة بعوالمها ولهذا تكرر لفظ العالمين، ولكى نوضح احتمال وجود حياة على الأرضين الأخرى التى لم يكتشفها العلم حتى الآن نستعين بآيات أخرى من القرآن الكريم كما فى قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الشورى)

وعبارة ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ اعتبرها المفسرون إشارة إلى دواب الأرض فقط فهم لا يعرفون دواب السماء، وقالوا: إن فيهما تعنى «فى مجموعها» ونسوا أن هناك ست أرضين أخرى أخبرهم الله بها فى سورة الطلاق وأن هذه الأرضين عليها حياة، أى عليها دواب، وبهذا تصدق آية الشورى على دواب الطرفين كليهما المتحدث عنهما (السموات والأرض) ولقد فصل الله سبحانه فى سورة النمل ما أوجز فى آية الشورى فى قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (النحل: ٤٩)

وهنا ذكر تعالى الاسم الموصول «ما» مرتين لا مرة واحدة كما فى آية الشورى، أى مرة متعلقة بالسماء ومرة متعلقة بالأرض، ليذهب سبحانه بكل شك فى أن قوله (من دابة) بيان لما فى السماء ولما فى الأرض من دواب، ويكون ذكر الملائكة بعد ذلك ضمن من يسجد مانعا من تأويل دواب السماء بالملائكة عند من لا يدركون أن الملائكة لا يليق بهم أن يعبر عنهم بالدواب علاوة على أن الملائكة مخلوقة من النور بينما الدواب مخلوقة من الماء كما فى الإشارة القرآنية

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ (النور: ٤٥) والملائكة ليست دواب لأن عطف شيء على آخر يدل على مغايرته له وبهذا فإن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا كما يتضح فى هذه القضية الهامة التى تنبئ البشرية بما تجهله إلى الآن بالنسبة لوجود حياة على الكواكب الأخرى، وإن حدثت نفسها بهذا الاحتمال فى عصر الفضاء بحثا وراء تعدد العوالم، ومهما يكشف العلم فى هذه القضية حتى يصل فى المستقبل إلى إثبات تعدد العوالم فإنما يحقق بذلك معجزة قرآنية سبقت العلم، وتتحدد بها الحجة وتزداد بها الأدلة على أن القرآن من عند الله.

وتفسير القرآن بالقرآن هو أحد عناصر المنهج التى لها الأولوية فى الأمور الشرعية والكونية، ولهذا بدأنا بنود هذا المنهج المقترح بتجميع الآيات التى تعالج قضية واحدة لعلها توضح بعضها بعضا، وعلى سبيل المثال لو سألتنى ما هو الفرق بين الجرى والسباحة والعروج والمشى لوجدت فى القرآن آيات تصف ألفاظ الحركة وتفرق بين كل نوع من هذه التحركات ولا يتسع المجال للمزيد من الأمثلة، المهم أنه لا يوجد تعارض بين آيات القرآن بل يوضح بعضها بعضا كما لا يوجد تعارض بين آيات القرآن والفطرة فى حقائقها.

١١ - التعارض والتناقض مستحيل بين القرآن فى آياته وبين الفطرة فى حقائقها:

وهذا البند دليل على وحدانية الله منزل القرآن وخالق الكون، ويجب أن نتمسك بهذا المبدأ عند تفسير الآيات الكونية ونثق فى الأمور العلمية المتفقة مع القرآن، والقرآن الكريم يحتوى على مالا يقل عن ثمانمائة آية كونية يتوقف على تفسيرها وفهمها الدعوة إلى دين الله الواحد الأحد وخاصة فى هذا العصر، عصر العلم الحديث الذى سبقه القرآن إلى حقائق كونية بعضها صحح لفلاسفة اليونان من أخطائهم الفلكية وبعضها لم يكشف عنه العلم إلا حديثا جدًّا، وبعضها من القضايا الكلية التى تنطوى تحتها قضايا جزئية ثبت بعضها فعلا ولا تزال صالحة لتشمل ما يمكن أن يكشف عنه العلم فى مجالها، ومعروف أن القضايا الكلية هى أرقى ما يمكن أن يصل إليه العلم فى ميادينه المتعددة مثل قضايا الزوجية فى الكون والنسبية العامة والخاصة وتعدد العوالم وضرورة توافر الماء لخلق الأحياء وكلها قضايا قرآنية تشير عند ورودها فى الآيات الكونية إلى تماثل وتناسق ووحدة الخلق وبالتالى إلى وحدانية الخالق، وعلى سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الذاريات)

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (يس)

وهذا مبدأ قرآنى ينص على أن الوحدانية صفة الخالق بينما الزوجية صفة المخلوق، والنص القرآنى عام يشمل الكون كله فى قوله سبحانه:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الذاريات)

ونحن نفهم الأزواج بالمفهوم الجنسى منذ بدء الخليقة ولكن مفهوم الزوجية اتسع مع الزمن ومع تقدم العلم واكتشاف الجسيمات الذرية وأزواجها أى المادة والمادة المضادة وأصبحت القاعدة هى الزوجية حتى إن العلماء يتحدثون الآن عن الكون والكون المضاد والزمن والزمن النقيض تماما كما يتحدث علماء الدين عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحلال والحرام والملاك والشيطان والعدل والظلم والجنة والنار والرحمة والعذاب.. حقا إن التناسق والزوجية تسرى فى الكون كله بروعة تأخذ بالعقول والألباب كقضية كلية تدل على وحدانية الخالق، وصدق الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ (الملك: ٣)

ثانيًا: ضوابط تفسير الآيات الكونية:

هناك شروط وضوابط لابد من توافرها فى المفسر للآيات الكونية بالإضافة إلى مراعاة عناصر المنهج السابق (ص٥٣) وهذه الضوابط هى:

١ - أن يكون المفسر عالما بالحديث والنحو واللغة والبلاغة وأصول الدين والفقه وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وأن يكون عاملاً بما يعلم فيورثه الله علم ما لم يعلم، وإذا كان المفسر من علماء الكونيات عليه أن يستعين برجال الدين واللغة أو أن يكون مطلعا فى العلوم الدينية وفى كتب التفسير فذلك أهدى وأقرب للصواب. وأقترح إنشاء مركز لبحوث الإعجاز والتفسير العلمى للقرآن بمجمع البحوث الإسلامية ولجنة خاصة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية[1] علاوة على قسم لهذا الغرض بكليات أصول الدين بجامعة الأزهر.

٢ - أن يكون المفسر فاضلا ومفوضا أمره إلى الله متضرعا ومستلهما الرشد والتوفيق، وأن يحذر من الإعجاب بنفسه، وأن يكون من أهل الزهد والرغبة فى الآخرة. حتى لا يفسر كتاب الله بما تهوى نفسه، وأن يكون عمله ابتغاء مرضاة الله.

٣ - ألا يتكلف إلى تنزيل الآية إلى النظرية العلمية أو العكس بأى حال للتوفيق بينهما، والأصل الذى يقاس عليه هو حقائق القرآن، وألا يعتبر العلم هو المهيمن والقرآن تابعًا، فهذا خطأ

(١) تم تشكيل هذه اللجنة فى ديسمبر ١٩٩٧ وتم اختيارى عضوًا ومقررا لها بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

لأن القرآن حقيقة مطلقة بينما العلم نسبى وغير نهائى والحكمة للقرآن الذى يجب أن يدرك الجميع طبيعته ووظيفته فهو كتاب عقيدة وهداية وإعجاز علمى وبيانى وبلاغى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهو أيضا مفصل على علم كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف: ٥٢)

وعلم الله هو العلم الشامل المحيط الخالى من الخطأ أو النقص بينما علم الإنسان محدود يقبل الازدياد ومعرض للخطأ مع مراعاة ما يلى:

- هناك نصوص من الوحى قطعية الدلالة وهناك أيضا حقائق علمية قطعية.
- هناك نصوص من الوحى ظنية الدلالة وهناك فى العلم نظريات ظنية فى ثبوتها وعندما يرينا الله آياته فى الآفاق والأنفس مصدقة لآية قرآنية أو حديث نبوى يتضح معنى النص ويكتمل التوافق ويستقر التفسير وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص بما تم اكتشافه من حقائق علمية وهذا هو الإعجاز.
- إذا حدث تعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية نرفض هذه النظرية فورا لأن النص وحى من الله الذى أحاط بكل شىء علما، وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلا على صحة قطعية يؤول النص بها دون تخوف، فالقرآن يعلن صراحة أنه يحتوى على بعض الحقائق التى لم تظهر حقيقتها فى وقت النزول كما فى قوله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (يونس)

أى إن بالقرآن حقائق ستتضح بمرور الأزمان. بدليل «لمَّا» النافية الجازمة التى تعنى تأكيد ظهور التأويل فى المستقبل أى لم يأت التأويل حال نزول القرآن ولكنه سيأتى يقينا فيما بعد.

٤ - لا يجوز أن تطغى تفاصيل العلوم الطبيعية على التفسير لأن المقصود الأول من القرآن هو الهداية. وإذا أسرف المفسر فى هذا الاتجاه العلمى فإن الغرض لا يتحقق ويبتعد المفسر بذلك عن الهدف من بيان آيات الله فى الكون. وهذا الهدف يوضحه الله عز وجل كما فى قوله تعالى:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ۚ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران)

فالهدف هنا الاعتراف بوجود الله وقدرته وعظمته ووحدانيته والتعرف على الإعجاز العلمي للقرآن لإثبات صدق نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وأن خالق الكون هو منزل القرآن وأن التعرف على الكون بهدف العبادة هو سبيل للنجاة من عذاب الله يوم القيامة.

٥ – تحديد المعنى اللغوى تحديدا دقيقا وعدم مخالفة اللغة العربية عند التفسير كما أن الأخذ بظاهر العربية وحده غير كاف.

٦ – ألا يقرر المفسر مذهبا فاسدا أو نظرية خاطئة أو يتعصب لرأيه ومذهبه دون وجه حق.

٧ – عدم القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل فهذا منهى عنه شرعا، وكذلك عدم المجازفة ببيان مراد الله تعالى من كلامه رغم الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة وحقائق العلوم الكونية اللازمة للتفسير.

٨ – الابتعاد عن الروايات الإسرائيلية والأحاديث الموضوعة الضعيفة وعدم الخوض فى الأمور الغيبية مما استأثر الله بعلمه كموعد قيام الساعة وما أشبه ذلك.

obeikandl.com

خاتمة

تناولنا فى هذا الكتاب قضية الإعجاز العلمى للقرآن الكريم كأحد أوجه إعجاز القرآن، ذلك الكتاب السماوى المهيمن على كل الكتب السابقة. ورأينا كيف أن هذا الوجه من أوجه الإعجاز القرآنى قد تجلى من خلال إشارات قرآنية تلمح إلى حقائق علمية كثيرة دون أن تتناولها بالتفصيل من جميع جوانبها. هذه الحقائق تم الكشف عنها مؤخرًا لتصبح شاهدًا على أن القرآن الكريم هو وحى من الله وهو الرسالة الخاتمة للبشرية جمعاء.

ونظرًا لأهمية إبراز هذا الوجه من إعجاز القرآن، وجب علينا الاهتمام بتفسير الآيات الكونية وقد تناولت فى الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب منهج وضوابط هذا التفسير الذى رأيت فيه خيرًا كثيرًا للدعوة الإسلامية وفوائدَ جمة نلخصها فيما يلى:

أولاً: إدراك وجوه جديدة لإعجاز القرآن والسنة. فقد يدرك أهل عصر معين ما لا يدركه غيرهم، فالقرآن الكريم حجة الله البالغة على عباده وهو معجزة الدهر بل معجزة خالدة ومتجددة لأن الله قد وضع فيه آيات كونية يتبين للناس منها على مر الدهور وجه لم يكن قد تبين فيكون هذا التجدد فى الإعجاز العلمى بمثابة تجديد للرسالة الإسلامية الموجهة لكل البشر فى كل مكان وكل زمان ليتبين لهم أن القرآن حق.

وأهل عصرنا كما نعلم لا يؤمنون بغير لغة العلم وسيلة للتخاطب والاقتناع وبهذا فإن بيان الإعجاز العلمى للقرآن والسنة يقدم أقوى برهان لمن أراد الحق من سائر الأجناس، ويعطى الثقة مرة ثانية فى قلوب المسلمين الذين فتنهم الكفار عن دينهم باسم العلم، فيرجعون إلى إيمانهم وهم أكثر يقينا وإيمانا كما فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ (الأنفال: ٢)

ثانيًا: بيان بلاغة نصوص القرآن واتساع معانيها لمخاطبة الأولين والآخرين بألفاظ معجزة يدرك كل منهم لونا من إعجازها حسب قدرته وإمكانياته.

ثالثًا: تصحيح مسار العلم التجريبى فى العالم، فالبشرية بحاجة إلى الدين الحق الذى يجمع بين الدين والعلم وبين المادة والروح وبين عالم الشهادة والغيب وبين الدنيا والآخرة فيما نسميه إسلامية المعرفة.

رابعًا: تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية وحفزهم بالأخذ بالعلم بدافع من الحوافز الإيمانية لعلها تعبر بهم فترة التخلف الحالية التى يمرون بها وعاشوها للأسف فترة من الزمن.

وسيجد الباحثون المسلمون فى كلام الله عن أسرار مخلوقاته أدلة تهديهم وتقرب لهم النتائج وتوفر لهم الجهود.

خامسًا: بيان الإعجاز بالسبق، وذلك فى إشارة بنصوص القرآن إلى حقائق علمية ثبتت فى العصر الحديث أو مازال العلم يلهث وراء إثباتها.

سادسًا: استمالة غير المسلمين إلى الإسلام عن طريق التفسير العلمى للآيات الكونية مصداقا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت)

وقوله تعالى:

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾

(البينة)

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين.